حضور أهل الذمة في المجتمع الأندلسي : عامل استقرار أم باعث فوضى459هـ - 522 هـ/ 1066 م - 1128 م.

د. عبد العزيز شاكي جامعة المسيلة

الملخص

يعتبر أهل الذمة من المكونات التي لا يمكن إغفالها ضمن النسيج الاجتماعي الإسلامي بشكل عام ، وقد كان حضورهم في الأندلس لافتا وبيّناً ، ورغم مساهمتهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وأحيانا السياسية ضمن المجتمع الأندلسي أو المغربي ، إلا أنهم شكلوا أحيانا معول هدمٍ للبنية الديمغرافية والخريطة الأمنية للدولة ، فقد ساهم بعض اليهود في إذكاء الفتنة أحيانا وتسبب بعضهم في جرائم قتل مما ألّب الساكنة المسلمة عليهم وجعلها تثور ضدهم ، أما النصارى فرغم مساهمتهم في المنتوج الحضاري للدولة الإسلامية إلا أنهم ساهموا في تعريض الدولة والمجتمع إلى الخطر ، وهو ما جعل الساسة القائمين على شؤون الدولة يسارعون إلى ردعهم ومعاقبتهم ، إن هذه الأخطاء التي ارتكبها أهل الذمة جعلت السلطة والعامة على السواء في توجس وخيفة مستدامة حيّالهم .

مقدمة:

ظل أهل الذمة يشكلون أحد الأطياف الهامة للتركيبة الديمغرافية للدولة الإسلامية ، وقد عرفت دولة الإسلام في الأندلس حضورا لا يُستهان به لأهل الذمة سواء اليهود منهم أو النصارى ، في النسيج الاجتماعي ، غير أنهم شكلوا أحيانا معول هدم للدولة الإسلامية (عصر الطوائف ومن بعده الدولة المرابطية) وارتضوا أن يكونوا سببا في فلتانٍ امنيٍّ كاد يعصف باستقرار المجتمع من جهة وتهديد أمن الدولة من جهة أخرى ، فإلى أي مدى شكل اليهود والنصارى خطرا على استقرار المجتمع والدولة في الأندلس ؟ وما هي أهم معالم هذا الحضور الذمي في شكله المهدد والخطِر ، وما هي أهم تداعياته ، وكيف كان تعامل السلطة مع هؤلاء المتسببين في الفوضى والفلتان الأمني .

الحضور اليهودي :

ارتضى بعض اليهود أن يكون حضورهم في دولة الإسلام ضمن جغرافية الأندلس معول هدم وفساد وتخريب وإشاعة للفوضى ، وقد كان اليهود يعيشون في أحياء خاصة بهم ويحتكرون التجارة أحيانا ، والسلطة أحيانا أخرى ويحاولون إقصاء كل من ينافسهم على ذلك [1] وقد تكاثر عدد اليهود في بعض المدن الأندلسية على غرار مدينة غرناطة التي صارت تعرف باسم مدينة اليهود ، وصاروا يشغلون المناصب الحساسة ويتدخلون في شؤون الدولة ، ويرتكز في أيديهم قدرا ليس باليسير من المال والسلطة [2] وهو ما جعل الساكنة المسلمة في غرناطة تتذمر من ذلك ، وقد نقل لنا الشاعر أبو إسحاق الألبيري عام 459 هـ / 1066 م ما آل إليه الوضع المتردي الناجم عن تقريب حاكم غرناطة لليهود إلى بلاط ملكه ، حيث يقول الشاعر :

ألا قل لصنهاجة أجمعين ... يدور الزمان وأسد العرين
لقد ذل سيدكم ذلةً ... تقربها أعين الشـــــامتين
تخير كاتبه كافـــــرا ... ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخبوا ... وتاهوا وكانوا من الأرذلين
فكم مسلم راغب راهب ... لا رذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ... ولكن منا يقوم المـــــعين
فهلا اقتـــــدى فيهم بالألى ... من القادة الخيرة المـــتقين

وأنزلهـــــم حيث يستأهلـــون وردهم أسفل سافلـــــــين
فلم يستخفوا باعلامنـــــــــــــا ولم يستطيلوا على الصالحين [3]

كما نظم أبياتا من الشعر وجهها إلى حاكم غرناطة يلومه فيها على استكانته لليهود ، واصفا إياهم بالعابثين والممهدّمين ، وناعتا اليهودي ابن نغزالة [4]بالفاسق ، وهو دليل بيّن على تذمر هذا الشاعر من أعمال اليهود في غرناطة [5] (أبيات الشعر في الهامش)

إن مضمون القصيدة دليل واضح على تذمر الساكنة المسلمة من الطائفة اليهودية وتغلغلها في السلطة وقربها من دوائر صنع القرار ، وما إن انتهى أبو إسحاق الألبيري من قصيدته حتى ثار عامة السكان في غرناطة ضد اليهود وانتهبوا أموالهم ودورهم ، ويقدم لنا ابن عذاري وصفا لما جرى في هذه الوقيعة بقوله : ((وفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة كان القيام على اليهود بغرناطة ومقتل ابن نغزالة وقتل من اليهود أكثر من ثلاثة آلاف واستؤصلت أموالهم ، ووجدت لابن نغزالة فيما وجد له خزانة جليلة من كتب أشتات العلوم الإسلامية وكان له وراقون ينسخون له الكتب بالنفقات والمرتبات))[6]

ويتضح أن ابن نغزالة اليهودي (ويرد اسمه في المصادر كذلك بابن النغريلة و ابن نغرالّة و ابن نغرِلّة)) [7] كان يتمتع بمكانة وجاهٍ من خلال وصف ابن عذاري في البيان ، بل وقد قدّم لنا ذات المؤرخ وصفا لحال سطوة اليهود على المسلمين وعلى رأسهم هذا اليهودي بقوله :((وصارت لليهود صولة على المسلمين في دولته إلى أن حدثته نفسه الفاجرة بأشياء أخرجته لضرب رقبته وقتل جملة عظيمة من أهل ملته وذلك أن هذا اللعين طلب أن يقيم لليهود دولة)) [8] ، ويبدو أن الأعمال التي قام بها اليهودي ابن نغزالة وصلت حد اللامعقول فقد ذكر ابن سعيد المغربي انه استهزأ بالمسلمين وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعارٍ وموشحاتٍ يغنّي بها ومما ورد في شعره :

نَقَشْتُ في الخدِّ سطراً من كتابِ الله موزونْ
لن تنالـــــــــوا البر حتى تنفقوا مما تحبـــــــــونْ[9]

كما نقل لنا ابن بسام الشنتريني بعضا من أبياته الشعرية [10] ، وامتنع عن نقل بعضها قائلا : ((وهذا القصيد اندرج له من الغلوّ فيه مالا أثبته ولا أرويه وابعد الله المنفتل ، فيما نظم فيه وفضّل ، وقبّحه وقبّح ما أملَّ)) [11] ، ويبدو أن تجاوز هذا اليهودي للمعقول جعل تذمر ابن بسام يبلغ من الأمر مبلغه فقد قال : ((قبح الله هذا مكسبا ، وابعد من مذهبه مذهبا تعلق به سببا ، فما ادري من أي شؤون هذا المدلّ بذنبه ، المجترئ على ربه)) [12] .

إن هذه الاستفزازات جعلت العامة تثور على اليهود وتكون المقتلة عظيمة في وسط اليهود ، إذ قدّرهم ابن عذاري بثلاثة آلاف [13] ، غير أن ابن بسام الشنتريني و المستشرق رينهرت دوزي خالفا ابن عذاري في عدد الهالكين من اليهود حيث زادوا على ذلك مقدّرين إياهم بأربعة آلاف قتيل [14] ، ووصفوا ذلك بالمقتلة العظيمة ، أما عن مصير هذا اليهودي (ابن نغزالة) فقد اختفى في بيت فحم وسوّد وجهه يريد أن يتنكر ، فعرفه الناس وقتلوه وصلبوه على باب المدينة [15] ، وقد ذكر ابن الخطيب في الإحاطة أن هذا الكاتب اليهودي المعروف بابن نغزالة اكتسب الجاه رفقة عمال من أهل ملته (اليهود) حتى استطالوا على المسلمين حيث عبّر عن ذلك بقوله ((أمضى باديس كاتب أبيه ووزيره ابن نغزالة اليهودي وعمالا متصرفين من أهل ملّته فاكتسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين)) [16].

وقد ذكر ابن الخطيب أن العامة ثارت على اليهود وقتلوهم وانتهبوا دورهم ووصف المقتلة بالعظيمة دون الإشارة إلى عدد القتلى مكتفياً بالحديث عن صلب ابن نغزالة على باب مدينة غرناطة [17] ، أما ابن بلكين فقد ذكر مقتل ابن نغزالة ومن بعده اليهود بقوله : ((فتسامع لذلك الناس أجمع خاصتهم وعامتهم ، واتوا عازمين على قتل اليهودي ...واتسع الخرقُ على الراقِع وهرب اليهودي بنفسه إلى داخل القصر واتبعته العامة حتى ظفروا به وقتلوه ، وأحالوا السيف على كل يهودي بالبلدة وحصلوا على عظائم من أموالهم)) [18] كما أورد ذلك ابن بسام بقوله ((فاعلنوا بالصياح وثاروا إلى الصياح ، واتى الصريخ بقية الجند وعامة أهل البلد ونادى مناديهم : غدر اليهودي وخان ... فدخلوا القصر من كل باب وهتكوا حرمة اليهودي دون حجاب فقُتل – زعموا- في بعض خزائن الفحم)) [19]، وعلى أية حال فقد كان عدد القتلى من اليهود كثيرا جراء ثورة العامة ضد التغلغل اليهودي في السلطة الغرناطية وإثارة هذا اليهودي للفتن في الدولة ، بل وتعديه الصارخ على حرمة المقدسات وذلك بمحاولته المساس بالقرآن الكريم ونظمه في أبيات من الشعر .

ولما استشعر المرابطون خطر هؤلاء اليهود ونفور الرعية منهم اتخذوا ضدهم إجراءات تقيد تحركاتهم وتجعلهم تحت الرقابة المستديمة [20] بل ووصل الأمر بالأمير المرابطي يوسف بن تاشفين [21] إلى فرض ضرائب عليهم وصفها ابن عذاري بالثقيلة حيث قال عن ذلك ((وفيها افترض على اليهود فريضة ثقيلة في جميع طاعته ، اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار)) [22] ، كما سجلت المادة الخبرية الجغرافية ممثلة في الإدريسي منع السلطات المرابطية أيام الأمير علي بن

يوسف اليهود المبيت في مراكش حيث يقول عن ذلك : ((وكانت اليهود لا تسكن مدينة مراكش عن أمر أميرها علي بن يوسف ، ولا تدخلها إلا نهارا وتنصرف عنها عشية)) [23] ، وهو إجراء احترازي لما قد يصدر عن اليهود خاصة إذا علمنا أن دولة المرابطين حينها كانت بين فكي كماشة ، جمادها للمالك النصارى في الأندلس ومجابهتها لحركة الموحدين في الجنوب ، ويبدو أن توجّس الساسة المرابطين من اليهود جعلهم يحتاطون لذلك ويعمدون إلى كل مسلك يحد من أي تواطؤ محتمل .

كما تكرر الحضور اليهودي في المؤامرات ، فقد ذكر ابن عذاري انه لما ذاع صيت وقوي نفوذ احد الشخصيات اسمه موسى ابن مفروج [24] في غرناطة وصار ذا شهرة ذائعة الصيت ، دس له احد الأطباء اليهود سما فارداه قتيلا وكان ذلك سنة 522 هـ / 1128 م [25] وما يؤكد نظرية المؤامرة هو قول ابن عذاري بان القاتل منتحلا لمهنة الطب إذ قال عن ذلك ((فدس له يهودي ينتحل الطب سقاه يوم أربعاء ودفن يوم جمعة)) [26] ، إن مثل هذه الأعمال تجعل من الساكنة المسلمة تنفر من اليهود بل وتتحاشى التعامل معهم بل وتعدى ذلك إلى الثورة عليهم .

تكرر الحضور اليهودي في حالة الفلتان الأمني في الأندلس المرابطية ، إذ ثارت العامة على اليهود في مدينة قرطبة سنة 529 هـ / 1134 م ، وكان السبب المباشر في إذكاء هذه الفتنة هو قتل احد اليهود لمسلمٍ في حي يهودي حيث نقل لنا ذلك ابن القطان بقوله : ((وقتل يهودي مسلما ، فاستطال المسلمون على اليهود فنهبت أموالهم وهدمت ديارهم وذلك بقرطبة)) [27] ، كما نقل لنا ابن عذاري عن ذلك قوله : ((وثارت العامة أيضا بقرطبة في هذه السنة (ويقصد سنة 529 هـ / 1134 م) في رجب على اليهود – لعنهم الله – بسبب قتل وجد بين أظهرهم ، ففتحت منازلهم وانتهبت أموالهم وقتل نفر منهم)) [28] .

يتضح من خلال الروايتين السالفتين أن ثورة العامة بقرطبة على اليهود لم تكن سوى ردة فعل على حادث القتل الذي قام به احد اليهود في حي من أحياء بني جلدته ضد مسلم . كما أن الظاهر أن رد الفعل كان فوريا وتلقائيا ، ولربما هو نتيجة ضغينة دفينة في قلوب الساكنة المسلمة لليهود جراء أعمال اقترفوها سابقا .

لكن ما هي الدوافع الحقيقية وراء هذا الفعل الجنائي الذي أقدم عليه هذا اليهودي ؟ ربما يرجع ذلك إلى وجود فراغ قضائي عاشته قرطبة بعد مقتل قاضيها احمد بن خلف التجيبي [29] وهو في المسجد [30] ، فخلق ذلك شغوراً قضائيا استسهل من جرائه الناس ارتكاب المخالفات ، فقد ذكر ابن

القطان عن ذلك الشغور قوله : ((وبقيت قرطبة أشهرا دون قاض ، ثم وليها أبو جعفر حمدين بن حمدين)) [31]

وبذلك يُرجّح أن دافع هذا الفعل الجنائي هو الفراغ القضائي الحاصل في قرطبة ، غير أن هناك ترجيح آخر يتمثل في الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها بلاد الأندلس بشكل عام وقتئذٍ متمثلة في الأوبئة والمجاعة [32] التي ربما خلقت أزمات اقتصادية جعلت الناس يميلون إلى العنف .

وبصرف النظر عن مسببات هذا العمل الشنيع فقد كان اليهودي القاتل هو سبب وقوع هذه الثورة التي قام بها عامة الناس من المسلمين ضد اليهود في قرطبة والتي كان من نتائجها قتل نفر من اليهود ونهب أموالهم ودورهم [33] .

إن المادة المصدرية - التي بين أيدينا – لم تزودنا بسبب صريح لعملية القتل هذه ، غير أننا نتوقع أن تكون حالة الشغور القضائي الحاصل في قرطبة تجعل الناس في أريحية لارتكاب هكذا مخالفات من جهة ومن جهة أخرى الحالة الاقتصادية التي آلت إليها الأندلس جراء الجوائح الحاصلة فيها جعلت الجاني يرتكب جريمته ، ويمكن الاستنتاج أن إحساس العامة بغياب الجهاز الأمني والقضائي المرابطي هو ما جعل الساكنة القرطبية تثور على اليهود [34] وتضيف إلى حالة التوجس من اليهود توجسا إضافيا قد يجعل البنية الاثنية المرابطية أكثر هشاشة واهتزاء .

رغم عديد القلاقل – المرصودة في بحثنا - التي أثارها اليهود في المجتمع الأندلسي إلا أن تعامل السلطات الرسمية لم يعدو أن يكون رد فعل لم يتجاوز حدود المعقول ، ويمكن القول أن خوف السلطات من اليهود له ما يبرره بالنظر إلى صنيعهم مع الرعية والدولة ، وحتى فرض السلطات المرابطية للضريبة عليهم كان ضمن الضريبة المفروضة على البقية ، فلم تشكل جبايتهم استثناءً بعينه[35] ، وفي المقابل نستشعر مدى سموِ مكانتهم ضمن النسيج الاجتماعي المسلم فهم يمتلكون ثروات هائلة ، ويشتغلون في وظائف عديدة ، بل ووصلوا إلى مناصب قريبة من دائرة صنع القرار كما هو شأن ابن نغزالة ، بل وتمتعوا بحرية في التأليف وصلت حد التعدي على حرمة الدين وهو – في رأينا – ما كان ليكن لولا المناخ الحر السائد آنذاك .

الحضور النصراني :

حضي النصارى بمكانة خاصة لدى السلطات المرابطية وذلك ضمن ما تضمنه شريعة الإسلام فيما تعلق بأحكام أهل الذمة ، وقد أُشتهر عن أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين [36] انه أوّل من

استعمل الرُّوم بالمغرب واركبهم وقدمهم على جباية المغارم [37] ولا يجب أن نغفل بعض الأدوار الريادية التي قدمها بعض النصارى ، من هؤلاء القائد العسكري الروبوتير [38] الذي أسره المرابطون لكنه اسلم واخلص الخدمة حتى وصفه ابن عذاري نقلا عن ابن صاحب الصلاة بقوله أن الروبوتير هذا كان من اكبر الطغاة بالأندلس نجدة وظهورا [39] .

وعلى أية حال فان ثقة الأمير المرابطي علي بن يوسف في هذا القائد النصراني الذي اسلم تجعلنا نتأكد من ثقة علي بن يوسف في هذا القائد العسكري الذي قدم خدمات جليلة للمرابطين في حروبهم مع حركة الموحدين المتعاظمة ، لذلك شكل مقتله ضربة قاصمة للمرابطين [40]

وفيما يبدو أن النصارى كانوا يعيشون ضمن اللحمة الديمغرافية المرابطية بشكل طبيعي ، إذ ذكر لنا ابن الخطيب أنهم كانوا يشتغلون بالمجال الفلاحي حيث احترفوا الزراعة وساهموا في عمارة المدن الإسلامية وعن ذلك يقول : ((استمر سكناهم في غمار من الروم ، يعالجون فلاحة الأرض وعمران القرى ، يرأسهم أشياخ من أهل دينهم أولو حنكة ودهاء ومدارة ، ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم)) [41] ،كما يذكر ابن الخطيب أنها كانت لهم كنيسة غنية بثرواتها وذات بنيان متميز [42] ، غير أن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين أمر بهدم هذه الكنيسة سنة 492 هـ / 1098 م ، وقد يكون هذا ما جعل النصارى يستاءون من هذا الفعل وجعل مشاركتهم في الخيانة تتخمر شيئا فشيئا [43] وأقدموا على استجلاب القائد النصراني ابن رذمير (الفونسو المحارب) لغزو غرناطة سنة 519 هـ / 1125م .

اغتنم النصارى اندلاع ثورة قرطبة سنتي 514 و 515 هـ / 1120 و 1121 م [44] ، ضف إلى ذلك تعاظم حركة المهدي بن تومرت في بلاد السوس وما والاها من البلاد [45] واتصلوا خِلسةً بالممالك النصرانية في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية طلبا للحماية ، وأرسلوا سفراءهم إلى القائد النصراني ابن رذمير [46] طالبين منه القدوم إلى غرناطة لاحتلالها والتنعم بخيراتها [47]، وعن ذلك يقول ابن الخطيب : ((أملت المُعاهِدة (والمقصود بهم المعاهدون النصارى) من النصارى لهذه الكورة إدراك الثرّة وأطمعت في المملكة ، فخاطبوا ابن رذمير من هذه الأقطار وتوالت عليه كتبهم وتواترت رسلهم مُلحّةً بالاستدعاء مطمعة في دخول غرناطة)) [48] .

وينقل لنا ابن الخطيب العروض المغرية التي قدمها هؤلاء المعاهدون النصارى لابن رذمير وذلك بإغرائه باحتلال غرناطة وراحوا يصفون له خيرات البلاد وثرواتها ، إذ يقول عن ذلك ابن الخطيب :

((فاستأثروا طمعه وابتعثوا جشعه ، واستفزوه بأوصاف غرناطة وما لها من الفضائل على سائر البلاد وبفحصها الأفيح ، وكثرة فوائدها من القمح والشعير والكتان ، وكثرة المرافق من الحرير والكروم والزيتون وأنواع الفواكه وكثرة العيون والأنهار ومنعة قبتها وانطباع رعيتها ، وتأتي أهل حاضرتها وجمال إشرافها وإطلالها ، وأنها المباركة التي يمتلك منها غيرها ، المسماة سنام الأندلس عند الملوك في تواريخها)) [49] ، ويبدو أن هذا الملك النصراني لم يكن ليصمد أمام هذه الإغراءات ، فقد ذكر ابن الخطيب أن هؤلاء المعاهدين من النصارى ((رموا حتى أصابوا غربه فانتخب واحشد وتحرك)) [50] ، والواضح أن هؤلاء النصارى المعاهدين كانوا مبيتين النيّة في تحريض ابن رذمير على احتلال غرناطة واستنزاف خيراتها .

تحركت الجيوش النصرانية بقيادة ابن رذمير متوجهة إلى غرناطة ، وانضمت إليه أعداد وافرة من هؤلاء المعاهدين النصارى التي كانت تُضمر الخبث والعداء ، ودليل ذلك أنها كانت تدله على الطرق وترشده إلى المسالك وعن ذلك يقول صاحب الحلل الموشية : ((وفي أثناء ذلك وصله عدد وافر من النصارى المعاهدين يكثرون سواده ويدلونه على الطريق وينبهون على المراشد التي تضر المسلمين وتنفعه)) [51] .

ويذكر المؤرخون أن هذا الفعل الشنيع افتضح أمره للعيان بعد أن كان مُضمراً خشية انكشاف أمرهم [52] ، فأرسل المرابطون جيوشهم إلى الأندلس لتدعيم قوات القائد المرابطي أبو الطاهر تميم [53] وبذلك انفض هذا العدوان دون تحقيق مآربه ، وارتد النصارى على أعقابهم ، ويصف لنا ذلك صاحب الحلل الموشية بقوله : ((فاقلع وقد ارتفع طمعه عن المدينة (أي غرناطة) فرحل على قرية مرسانة إلى بيش ومنها إلى السكة حيث لحق أحواز قلعة يحصب ... وجيوش المسلمين في أذياله تكافحه)) [54] .

بعد أن انفضّت هذه الحملة الفاشلة بدأ التلاوم بين ابن رذمير (الفونسو المحارب) من جهة وبين زعيم هؤلاء النصارى المعاهدين والمعروف بابن القلاس من جهة أخرى ، وصار كل طرف يلقي باللائمة على الآخر ، فقد وبخ ابن رذمير ابن القلاس متهما إياه بعدم تقدير العواقب وبتوريطه في حرب خاسرة استجلبت له العداء والخسارة والخذلان ، أما ابن القلاس فاتهم هو الآخر ابن رذمير بالتقاعس والتّماطل والتأخر حتى وصول نجدات إسلامية مرابطية ، وفصّل في ذلك ابن عذاري بقوله : ((وفي خلال ذلك سفر إلى رأس من رؤوس المعاهدة بالحضرة يعرف بابن القلاس يوبخه على استدعائه ويلومه تضمنه بما لا يفي ولا يقدر عليه ، فاحتج بتلوّمه وتباطؤه في إقباله حتى أقبلت

الجيوش من الشرق والغرب والعدوة ، وقال له قد أوبقتنا وأوقعتنا في الهلكة إلى المسلمين وساق نفسه إلى الخزي)) [55] .

بعدما انكشف الحجاب عن خيانة هؤلاء المعاهدين النصارى ، وتورطهم في حملة ابن رذمير استاءت العامة والسلطة المرابطية على السواء ، وتوجه القاضي أبو الوليد ابن رشد إلى مراكش عاصمة المرابطين ودار ملكهم ليبّين لأمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين ما اقترفه هؤلاء المعاهدون النصارى ، وما في ذلك من نقضٍ للعهد والخروج عن الذمة ، وقد نقل لنا صاحب الحلل الموشية وصفا دقيقا عن ذلك بقوله : ((ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم النصارى المعاهدين ما جلت عليه هذه القضية ، أخذهم الإرجاف ، وتوغّرت لهم الصدور ، وتوجه إلى مكائدهم الحزم ، فاحتسب القاضي أبو الوليد بن رشد الأجر ، وتجشم المجاز ولحق بالأمير علي بن يوسف ... فبين له الأمر بالأندلس وما منيت به النصارى المعاهدين وما جنوه عليها من استدعاء الروم وما في ذلك من نقض للعهد والخروج عن الذمة)) [56] ، ويتفق هذا الوصف مع ما نقله لنا ابن الخطيب في الإحاطة [57] وابن عذاري في البيان [58] .

إن ما أخبرتنا به المصادر يعتبر مؤشرا – لا يدع مجالا للرّيبة – على تذمر العامة والسلطات المرابطية على السواء من هذه الخيانة ، والغدر بالعهد ، لذلك اصدر القاضي أبو الوليد ابن رشد فتواه القاضية بترحيل هؤلاء المعاهدين النصارى وإجلائهم ، حيث نفّذت السلطات المرابطية هذا الحكم الذي قال عنه ابن عذاري : ((وأصغى إليه الأمير علي (المقصود به علي بن يوسف بن تاشفين) وتلقى قوله بالقبول ، فوقع نظره على تغريبهم وإجلائهم من أوطانهم وهو اخفّ ما يؤخذ به من عقابهم ونفذ عهده إلى جميع بلاد الأندلس بإجلاء المعاهدين إلى العدوة)) [59] .

بعد إجلاء هؤلاء المعاهدين النصارى إلى العدوة المغربية لاقوا إنكارا وازدراء في الوسط المرابطي ، وعن حالهم يقول ابن الخطيب : ((أنكرتهم الأهواء وأكلتهم الطرق ، وتفرقوا شذر مذر ، وأصاب كثير من الجلاء جمعتهم من اليهود)) [60] .

إن هذا الصنيع الذي قام به هؤلاء المعاهدون النصارى زاد الساسة المرابطين توجساً وخيفةً من هذه الطائفة ، وجعلهم محل شك مُستدام ، وهذا ما لمسناه في احد الفتاوى التي وردت عند الونشريسي في المعيار والتي نصها : ((وها هنا مسألة تتعلق بالإملاء المحبسة على بيع النصارى وكتب

بها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى الفقيه القاضي أبي القاسم أحمد بن محمد بن ورد وغيره من فقهاء الأندلس)) [61].

كان جواب الفقيه ممتلئا بالتوجس والخيفة من المعاهدين النصارى حيث ورد في الفتوى ما يلي : ((وأما إن كانت محاولة البيع بالأندلس لا هناك ، فليجتمع أولئك النصارى على وكيل واحد منهم يتولى لهم البيع بالأندلس ، ولا يمكنوا من توكيل جماعة منهم على ذلك ، إذ في رجوع جماعة منهم إلى الأندلس ولو مرة من الزمان مالا تؤمن غائلته ... وليصرحوا في توكيلهم لوكيلهم بذكر بيع العقار دون أن يتجروا في العقار بذكر البيع فقط للاختلاف الذي في ذلك)) [62] .

يتضح من خلال الفتوى الواردة في كتاب المعيار أن نفوس القائمين على القضاء لا تزال تتوجس خيفة من هؤلاء النصارى ، وان حبل الثقة لا يزال منقطعا ، هذا كله جراء الخيانة التي أقدم عليها النصارى المعاهدون ضد الدولة المرابطية في الأندلس .

إن ما رصدناه في بحثنا هذا لا يجعلنا نغفل عن المكانة التي كان يتمتع بها النصارى ضمن النسيج الاجتماعي المسلم ، فقد شغلوا مناصب حساسة في الدولة وشاركوا في جباية الأموال [63] ، وساهموا في الفلاحة وعمارة المدن[64] ، بل وتعدوا في سمو مكانتهم إلى تولي قيادة الجيش كما هو الشأن مع الروبوتير الذي قتل وهو يستميت في الدفاع عنهم [65] ، كما تمتّعوا بالحرية الدينية ضمن ما تكفله لهم شريعة الإسلام ودليل ذلك ما قال به ابن الخطيب عن امتلاكهم كنيسة متميزة في البنيان وغنية بالثروات [66] ، ورغم الإسهامات التي قدمها النصارى للمجتمع الأندلسي ، إلا أن بعضهم آثر أن تكون له يد في استجلاب الفوضى والدمار على الدولة والمجتمع المسلم .

خاتمة :

رغم أن الإسلام حفظ لأهل الذمة حقوقهم وفق ضوابط وشروط ، وكانوا فصيلا كبقية الفصائل يسهمون في البناء الحضاري للمجتمع الأندلسي ، إلا أن حضورهم شكل في بعض الأوقات معول هدم للبنية الاثنية والديمغرافية لدولة الإسلام في الأندلس بل وعلى الخريطة الأمنية للدولة المضطربة أصلا ، فقد تبين من خلال ما سبق أن الحضور اليهودي والنصراني أدى في بعض الأحيان إلى زرع الفتنة وتهديد الأمن العام للدولة التي هي في واقع الحال بين فكي كماشة ، ففي جهة الشمال لا تزال الممالك النصرانية المتكالبة على الأقاليم المسلمة تواصل سلسلة حروبها ضد مسلمي الأندلس ، وفي بلاد المغرب لا تزال حركة الموحدين تتعاظم وتنتزع أقاليم عدة من الدولة المرابطية . غير أننا نلتمس سماحة في التعامل اللين مع النصارى من جهة السلطات المرابطية إذ لم تتعد معاقبة أولئك النصارى المعاهدين تهجيرهم إلى بلاد المغرب ، كما لم نثبت في المصادر تعامل السلطات المرابطية مع أولئك اليهود المثيرين للفتنة ، والذين ثارت ضدهم الساكنة المسلمة بعد فتور رسمي في التعامل مع أولئك الجُناة من اليهود .

الهوامش

[1] سلامة محمد سليمان الهرفي : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين – دراسة سياسية وحضارية - ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ، د.ت ، ص ص 81 – 82 .

[2] رينهرت دوزي : ملوك الطوائف ، ترجمة :كامل كيلاني ، ط 1 ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1933 ، ص 41 .

[3] نفس المرجع ، ص 164 .

[4] ترجم له ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق : شوقي ضيف ، ط 4 ، دار المعرف القاهرة ، 1995 ، ج 2 ، ص 114 . ترجمة رقم 426 .

[5] ومما قال الشاعر بشأن ذلك :

أباديس أنت امرؤ حـــــــاذق تصيب بنفسك ظن اليقـــــــــين
فكيف خفي عنك ما يعبثون وفي الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الـــــــــــزنا وقد بغضوك إلى العالمـــــــــــين
وكيف يتم لك المرتـــــــــــقى إذا كنت تبني وهم يهدمـــــــون
وكيف استتمت إلى فاســـــــق وقارنته وهو بئس القـــــــــــرين

نفس المرجع ، ص 165 ؛ تتمة القصيدة ص ص 165 – 166 .

[6] ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : ليفي بروفنسال و ج. كولان ، ط 3 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983 ، ص ص 275 – 276 .

[7] ورد باسم ابن نغزالة عند ابن الخطيب وابن عذاري . ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، ط 1 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1977 ، ج 1 ، ص 439 ؛ ابن عذاري : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 275 ؛ أما ابن بسام الشنتريني فيورده باسم ابن نغريلة اليهودي . ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1997 ، المجلد الأول ، ص 24 ؛ ويورده ابن حزم الأندلسي باسم ابن النِغريلة بكسر النون . ابن حزم الأندلسي : الرد على ابن النِغريلة اليهودي ورسائل أخرى ، تحقيق : إحسان عباس ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، 1960 ؛ وورد باسم ابن نغرالّة في مذكرات ابن بلكين . ابن بلكين : مذكرات الأمير عبد الله –المسماة كتاب التبيان - ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، 1955 ، ص 36 ؛ أما ابن سعيد المغربي فيورده باسم ابن نغرِلّه . ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 114 .

[8] ابن عذاري : المصدر السابق ، ج 3 ، ص ص 265 – 266 .

[9] ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 114 .

[10] كما القصيدة الموجودة في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مج 1 ، ص 765 .

[11] ابن بسام : المصدر السابق ، مج 1 ، ص 764 .

[12] نفس المصدر ، مج 1 ، ص 765 .

[13] ابن عذاري : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 275 .

[14] ابن بسام : المصدر السابق ، مج 1 ، ص 769 ؛ رينهرت دوزي ، المرجع السابق ، ص 169 .

[15] ابن عذاري : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 266 ؛ رينهرت دوزي : المرجع السابق ، ص 167 .

[16] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 438 .

[17] نفس المصدر ، ج 1 ، ص 440 .

[18] ابن بلكين : المصدر السابق ، ص 54 .

[19] ابن بسام : المصدر السابق ، مج 1 ، ص 769 .

[20] سلامة الهرفي : المرجع السابق ، ص 83 .

[21] هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت بن ورتاقطين بن منصور من مصالة بن أمية بن ونمالى بن تليت الحميري من قبيلة لمتونة الصنهاجية ، كنيته أبو يعقوب وأبناؤه هم أبو بكر سير، إبراهيم ، وعلي، أبو الطاهر تميم، والمعز ، كان حسن السيرة خيّرا عادلا ، يميل إلى أهل العلم والدين يكرمهم ويحكمهم في بلاده ويصدر عن رأيهم ، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام ، دانت بطاعته العباد ، واتسعت ممالكه وطال عمره ، فيه عدل وخير وكان معتدل القامة ، نحيف حفيف العارضين ، دقيق الصوت ، حازما ، سائسا ، كثرت جيوشه وخافته الملوك ، أحبته رعيته وصلحت أحولهم في عهده . ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1972 ، ص ص 136 – 138 ؛ مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق : سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، ط 1 ، دار الرشاد الحديثة ، الدر البيضاء ، 1979 ، ص 24 ؛ السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1994 ، ج 2 ، ص 21 ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق : احمد الارناؤوط و تركي مصطفى ، ط 1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 2000 ، الجزء 29 ، ص 73 ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنئوط و محمد نعيم العرقسوسي ، ط 1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1985 ، 19 ، ص 252 وما بعدها ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : علي بوملحم ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2004 ، ج 24 ، ص 144 .

[22] ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الرابع (قسم المرابطين) ، تحقيق ، إحسان عباس ، ط 3 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983 ، ص 23 .

[23] الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2002 ، مج 1 ، ص 235 .

[24] نشأ بمدينة طنجة وتأدب باشبيلية ، له خط بارع وأدب صالح ونفوذ في الحساب ، كانت له نفس ذكية وهمة عالية . نفس المصدر ، ج 4 ، ص 76 .

[25] نفسه ، ج 4 ، ص 77 .

[26] نفسه .

[27] ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، تحقيق : محمود علي مكي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 ، ص 243 .

[28] ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 93 .

[29] هو محمد بن احمد بن خلف بن إبراهيم بن لب بن بطير التجيبي ، يعرف بابن الحاج ويكنى بابي عبد الله ، وهو قاضي الجماعة بقرطبة ، كان من جلة الفقهاء وكبار العلماء ، معدودا في المحدثين والأدباء ، بصيرا بالفتيا رأسا في الشورى ، وكانت الفتوى في وقته تدور عليه لمعرفته وثقته وديانته وكان معتنيا بالحديث والآثار جامعا لها ، عالما بمعاني الأشعار والسير ، قيد العلم العمر كله ، وعني به عناية كاملة ، تقلد القضاء بقرطبة مرتين وكان في ذاته لينا صابرا طاهرا حليما متواضعا لم يحفظ له جور في قضية . ابن بشكوال : الصلة ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1990 . ج 3 ، ص 845 .

[30] ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 93 ؛ ابن القطان : المصدر السابق ، ص 243 ؛ ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 845 ؛ النباهي : تاريخ قضاة الأندلس – المعروف بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا - ، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي ، ط 5 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1983 ، ص 102 .

[31] ابن القطان : المصدر السابق ، ص 243 .

[32] نفسه ، ص 266 .

[33] ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق ، ج 4 ، ص 93 ؛ ابن القطان : المصدر السابق ، ص 243 .

[34] محمد العمراني : : حواضر الأندلس بين الانتفاضة والثورة خلال العهد المرابطي – في القرن 6 هـ / 12 م - ، دار أبي رقراق ، الرباط ، 2006 ، ص 27 .

[35] حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس – عصر المرابطين والموحدين - ، ط 1 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1980 ، ص 366 .

[36] هو أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين ولد بسبتة 476 هـ / 1083 م حكم بين 500 – 537 هـ كان عادلا شجاعا متدينا ورعا معظما للعلماء مشاورا لهم لا يقطع أمرا في مملكته دون الرجوع إليهم . ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص 157 ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص 84 ، عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1998 ، ص 121 ؛ الذهبي : المصدر السابق ، ج 20 ، ص 124 ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون - المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر - ، تحقيق : خليل شحادة و سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2000 ، ج 6 ، ص 250 .

[37] مجهول : الحلل الموشية ، ص ص 84 – 85 .

[38] واسمه باللغة الأجنبية REVERTER وكنيته العلج الأعرج كان هذا القائد في البداية نصرانيا من قادة أمير برشلونة واراغون ، ثم أسره المرابطون ونقل إلى مراكش فاسلم واخلص الخدمة لأمير المرابطين علي بن يوسف فولاّه على قيادة الجيش لمحاربة حركة الموحدين إلى أن مات سنة 539 هـ / 1144 م . البيذق : أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1971 ، ص 47 ، هامش 2 ؛ ابن الأبار الأندلسي : الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1985 ، ج 2 ، ص 193 ، هامش 2 .

[39] غير أننا لم نعثر على ذلك صراحة في كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة ، وربما يرجع ذلك إلى قرب هذا المؤرخ من بلاط الموحدين المعادي للمرابطين ، كما قد يكون هذا الوصف متعلقا بمرحلة ما قبل التحاقه بالمرابطين وهو لا يزال على ملّة الكفر – والله اعلم - .

[40] عن نهايه هذا القائد انظر . ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الخامس (قسم الموحدين) ، تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1985 ، ص 103 ؛ البيذق : المصدر السابق ، ص ص 57 – 58 ، ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 308 ؛ السلاوي : المرجع السابق : ج 2 ، ص 95 .

[41] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 107 .

[42] نفس المصدر ، ج 1 ، ص 107 .

[43] نفسه ، ص 108 .

[44] مجهول : الحلل الموشية ، ص 86 ؛ النويري : المصدر السابق ، 24 ، ص 151 .

[45] البيذق : المصدر السابق ، ص 35 ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص 177 .

[46] والمقصود به الفونسو المحارب ، أما المصادر العربية فتذكره تارة باسم ابن ردمير على غرار ابن أبي زرع ، وتارة أخرى بابن رذمير على غرار الحميري في الروض .

[47] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 109 ؛ ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 69 .

[48] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 108 – 109 .

[49] نفس المصدر ، ج 1 ، ص 109 .

[50] نفسه .

[51] مجهول : الحلل الموشية ، ص ص 91 – 92 .

[52] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 110 ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص 93 .

[53] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 110 ؛ مجهول : الحلل الموشية ، ص 93 ، ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق ، ج 4 ، ص 70 .

[54] مجهول : الحلل الموشية ، ص ص 94 – 95 .

[55] ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق ، ج 4 ، ص 71 .

[56] مجهول : الحلل الموشية ، ص 97 .

[57] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 113 .

[58] ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص ص 72 – 73 .

[59] نفس المصدر ، ج 4 ، ص ص 72 – 73 . ويواصل ابن عذاري المراكشي وصف حالهم بعد النفي إلى العدوة في الصفحة 73 بقوله : ((فنفي منهم في رمضان عدد جم أنكرتهم الأهواء وأكلتهم الطرق ونسفتهم الأسفار ، ونزل فيهم الوباء وفرقهم الله شذر مذر واحل بهم عاقبة مكرهم وأذاقهم وبال أمرهم ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله)).

[60] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 114 .

[61] الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب ، خرجه مجموعة من الفقهاء تحت إشراف محمد حجي ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981 . ج 8 ، ص 56 .

[62] نفس المصدر ، ج 8 ، ص 58 .

[63] مجهول : الحلل الموشية ، ص ص 84 – 85 .

[64] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 107 .

[65] ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق ، ج 5 ، ص 103 ؛ البيذق : المصدر السابق ، ص ص 57 – 58 ، ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 308 ؛ السلاوي : المرجع السابق : ج 2 ، ص 95 .

[66] ابن الخطيب : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 107 .